

٤- وحيداً في جنازته



” نظراً للأخبار الواردة لطرفي من محافظ الإسكندرية من أن هناك استعدادات جارية تتعلق بإقامة زينة واحتفالات عند عودتي، نحيطكم علمًا أنني لا أريد أن يتحمل أي شخص مصاريف زائدة ولا أرغب في أن الأهالي والمستخدمين «الموظفين» يكلفون أنفسهم مصاريف التزلف إليّ، أما ذاتكم الشريفة إذا تفضلتم بالحضور لاستقبالي فأكون ممنونًا ومحظوظًا جدًا“.

■ محمد سعيد باشا

الإسكندرية

قصر رأس التين ١٨٦٢م

وحده برافيه يجلس بجانبه بعد أن باعه أصحاب المصالح، وحده برافيه يرعاه في هذه الحالة المتأخرة من المرض، لا يعلم أحد ما سر هذه العائلة الحاكمة مع لعنة المرض، لا يعرف الأطباء علاجه، منذ أن رجع الإسكندرية وهو راقد بجسده، الذي بدأ في النحول والاهتراء، بدأت تتأكل أطرافه، عيناه زائفتان، لا يقدر على الحركة، فقط ممدد بجسده الفاني في منامته الحاكمة لمصر والسودان.

ها هو برافيه يحاول رد جزء من جميله عليه، فهو يدين له بكل غال ونفيس، فكم أغدق عليه بالعطايا حتى صار مليونيراً في بضع سنوات، لا زال يعتصره الألم مما رآه من هؤلاء الحاشية المتملقة التي آثرت استمالة ابن أخيه إسماعيل، يتساءل كيف يكون الرجل كريماً معهم هكذا فيتركونه دون حتى نبس كلمة واحدة، بل ليس هذا يكفيهم، هم يتعجلون موته، لا يعلم كيف ينتاب البشر هذه الشراهة ويتحولون إلى أشباه حيوانات ينهبون هنا ويعيثون في الأرض فساداً، كيف لهذا الديليسيبس أن يتركه بهذه الحالة الموحجة، ألا يتذكر ما أعطاه إياه؟

ألا يتذكر كيف كان يعامله؟ كان يراه بمثابة الأخ الذي لم ينجبه محمد علي باشا الكبير.

كم من مرة يحاول برافيه أن يرد له الجميل، فسابقا اصطحب صديقه وولي نعمته في رحلة سحرية لمدينة النور "باريس"، لم لا وهو من أرسل الأورطة السودانية التي جمعت من

١ الأورطة السودانية: طلب نابليون الثالث من محمد سعيد باشا أن يمدّه بكتيبة من الجنود المصريين ممن تعودوا على القتال في الأماكن الحارة وظروفها الجوية المشابهة إلى جو المكسيك فقد كان الفرنسيين غير معتادين على القتال في درجات حرارة مرتفعة هكذا وتعرض كثير منهم للموت والهلاك بسبب تفشى الحمى الصفراء بينهم ووجدت الحكومة الفرنسية إن العناصر البيضاء لا تصلح للخدمة العسكرية بتلك المناطق الحارة، فكان أن فكر بصديقه سعيد باشا وإلى مصر وطلب منه أن يمدّه بكتيبة من الجنود الذين يتحملون هذه الظروف المناخية، ووافق سعيد باشا على طلبه وأمدّه بكتيبة من الجنود السودانيّين الأشداء يقودهم (البكباشى جبرة الله محمد أفندي) و (الصاغ محمد أفندي الماس) و ٨ يناير سنة ١٨٦٣م أقلعت الناقلة الفرنسية (لاسين LA SEINE) بهذه الكتيبة من الإسكندرية مارة بميناء طولون حتى وصلت بها إلى فيراكروز VER CRUZ بالمكسيك و جاء في التقارير الفرنسية إنها كانت ذات ملابس حسنة و سلاح جيد و استعداد عسكري يثير إعجاب كل من يراها).

أهداب وأدغال القارة السمراء؟ أرسلهم في رحلة أشبه برحلة الموت إلى المكسيك،

كل هذا لم يشبع صديقه الفرنسي، لكنها الحياة أغلي شيء يمتلكه الفرد، استبسل هؤلاء وأظهروا الكفاءة فأرسل قائد القوات الفرنسية يقول "تميزت الأورطة المصرية السودانية بأعمالها البارعة وصبرها على الحرمان واحتمال المشاق وشجاعتها في إطلاق النيران وجلدها في المشي"

أقام برفاهيه معه بقصر التوليري بليون، وتزينت فرنسا له، عبر معه قوس النصر، تلونت الصحف بالترحاب بحاكم أحفاد الفراغة، لم تكن رحلة للنزهة بل للاستشفاء ولكن دون فائدة، فكل عتاد الأطباء لم يستطيعوا فعل شيء، حتما سوف يموت قريبا.

لا يريد الزينة ولا الاستقبالات الرسمية التي أصبحت ترهقه، لم يعد يتحمل، أرسل إلى إسماعيل باشا يطلب منه:

" نظراً للأخبار الواردة لطرفي من محافظ الإسكندرية من أن هناك استعدادات جارية تتعلق بإقامة زينة واحتفالات عند عودتي، نحيطكم علمًا أنني لا أريد أن يتحمل أي شخص مصاريف زائدة ولا أرغب في أن الأهالي والمستخدمين «الموظفين» يكلفون أنفسهم مصاريف التزلف إليّ، أما ذاتكم الشريفة إذا تفضلتم بالحضور لاستقبالي فأكون ممنونًا ومحظوظًا جدًا".

القاهرة- قلعة الجبل

ظل يسي بك مدير المخبرات التلغرافية متربصًا بألته أكثر من ثماني وأربعين ساعة، ينتظر ذلك التلغراف الذي سيؤمن له كيسًا من الكرم وجعبة من العملات الذهبية، ينتظر لقبًا آخر يضيف لإقطاعه، غفل بضعة من الساعات، استقبل صغير موظفيه النبأ المحتوم، ففغرفاه، وتنسم الحلم، قد أتته النعمة من حيث لا يدري، نظر في كل الاتجاهات، أراد أن يعلم هل رصد أحد ما رسده هو، أخذ التلغراف وركب بساط الريح وتوقف عند قصر الحاكم الجديد، علم إسماعيل بقدمه فأفسح له المجال، أتاح له الكلام، فخضع الصغير أمام الحاكم الجديد وناوله تميمة حظه، وقرأ على مسامعه النبأ السار، فأصبح بيكًا جديدًا، ومن صعلوك إلى صاحب المعالي، وتناول كراكه^١ ورجع الأخير ليغنم من جديد وتصير هذه البرقية،

هي برقية سعده وهناه، وتعاسة وشقاء مديره الذي احتل عليه فسرق خبره وأخذ من كيسه واحتل مكانته.

^١ كراك: بمعنى هبة أو مكرمة من الأمير أو الحاكم ويطلق عليها حلوان في بعض الأحيان

ينتظر إسماعيل نفسه هذا الخبر، من وقت هذه الحفلة التي دعا إليها محمد سعيد باشا الأمراء إلى الإسكندرية، فذهبوا جميعًا إلا هو، كان مريضًا، وبعد انتهاء الحفلة عاد الأميران أحمد باشا رفعت^١ والأمير حليم بقطار خاص إلى القاهرة، والقطار يعبر النيل عند كفر الزيات في معدية، لم يكن هناك كوبري، هنا كانت نهاية أبناء الباشا، وقعت العربة بالنيل، ابنه الأمير كان بدينًا فمات غرقًا، هنا أصبح اسماعيل الحاكم المنتظر.

اصطفت المدافع وأطلقت صيحاتها، غربت شمس محمد سعيد باشا وسطعت شمس إسماعيل، فزحف الأفاقون إلى قصر إسماعيل، واستوطنوا بقربه وأظهروا له الولاء والطاعة، فارتدى الوالي الجديد لباس الحكم وأمر حاشيته بمدارة جسد عمه سعيد بالنبي دانيال، وضعه بقرب الإسكندر ليظل بقرب أعين الناس، يقطن وجدانهم.

^١ أحمد باشا رفعت: هو أكبر أبناء إبراهيم باشا ابن محمد علي.

الإسكندرية.. ١٨ يناير ١٨٦٣م

الجنابة خالية من الأبهة الملكية، لا تليق بحاكم استدعى كل طاقاته لكي تعيش الأمة في رخاء، قلة قليلة من الرجال، لا يرى برافيه أحدًا من الأمراء كلهم بقلعة الجبل، المهنتون تعلقوا أصواتهم بالمباركة للحاكم الجديد، لا يراعون حرمة الموت، لا يتذكرون شيئًا مما فعله سعيد الاسم.. مسكين الموت، لا يتذكرون لائحته السعيدية التي جعلتهم يمتلكون الأطيان ويصيرون من الأعيان، هو من قال عن شعبيهم في ذلك الحفل ومأدبة العشاء التي جمعهم فيها على مائدته، قال مخاطبا الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار رجال الدولة.

”أيها الإخوان، إنني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مظلومًا مستعبدًا لغيره من أمم الأرض، فقد توالى عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان، وهذا قبل الإسلام، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والتترك والأكراد والشركس، وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن (بونابرت)

وحيث إنني أعتبر نفسي مصرياً فوجب عليّ أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبته تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل.¹

لا يتذكرون ما فعله يجيشهم، لا يتذكرون كيف ألغى لهم الدخولية، تلك الضريبة التي سحقته رقاب الناس، لا يتذكرون الآثار التي حافظ عليها، لم يتذكروا له شيئاً سوى هذا الامتياز الخاص بقناة السويس الذي أضاع به مشروع عمره، كان يأمل أن يراه يكتمل، كان يعتبره تنمة لمشروع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كل الأعين لا تراه، فقط صياح وتهليل للأمير القادم إلى سدة الحكم.



¹ من مذكرات عرابي باشا